التراث العربي
١٢٠-١٢١

تحولات في صورة النبي محمد ﷺ: كتاب كارين آرمسترونغ أنموذجاً

أ.د.عبد النبي اصطيف(*)

المقدمة:

تشكلت صورة النبي محمدﷺ (بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الاستشراق أو المعرفة التي أنتجها، ولا يزال ينتجها، الغرب عن الشرق ولاسيما المسلم منه) في ظل المواجهة بين الشرق المسلم الناهض وبين الغرب الذي تبنى المسيحية ديناً له، واتخذها مظلة أيديولوجية، تسوّغ مناجزته لهذا الشرق دفاعاً عن مصالحه الدنيوية-هذه المواجهة التي امتدت نحواً من أربعة عشر قرناً. ومعنى هذا أنها ولدت ونشأت وترعرعت ونمت وتطورت وعُدِّلت في ظل هذه العلاقة، لتؤدي وظائف محددة لها في مواجهة «الآخر/المسلم»، واحتوائه، وتدجينه، واستُخدِمت سلاحاً يُقارَع به هذا «الآخر» على المستوى الثقافي والإيديولوجي والنفسي.

وبسبب مركزية شخصية النبي ﷺ في الدين الإسلامي والمجتمعات الإسلامية: تاريخاً وثقافة ووجوه حياة مختلفة، فضلاً عن مركزيتها في الدين الإسلامي عقيدة ومكارم أخلاق ومعاملات؛ وبسبب كون سنّته المصدر الثاني للتشريع في معظم الممالك والدول الإسلامية عبر العصور، ونتيجة النجاح الصاعق للفتوحات العربية الإسلامية في شرق العالم القديم وغربه، فقد كان من الطبيعي أن تنال صورته في الغرب مختلف مظاهر التشويه والطعن وسوء التمثيل، الناجمة أساساً عن دوافع دينية وأيديولوجية ومصالح دنيوية، بغرض نزع

(*) د. أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق.

مصداقيته بوصفه خاتم الرسل، وحاملاً لرسالة إنسانية سامية تدعو إلى العدل والمساواة والارتقاء بالإنسان خليفة الله على هذه الأرض من جهة، وإضعاف قوة أتباعه المادية والمعنوية بضرب أساس مهمّ من أسس وحدتهم وتضامنهم فيما بينهم من جهة أخرى. وهكذا وجدنا الغربيين يشككون بداية في صدق نبوته، ويتبعون ذلك بإثارة مصداقية كتاب دعوته، وسنّته، فضلاً عن الطعن في مختلف وجوه سلوكه الدنيوي ولا سيما علاقاته الزوجية، وصلاته بأصحابه، وغير ذلك مما شكّل مادة خصبة للخيال الأوربي الذي انطلق، بوحي من عنصريته وكراهيته للآخر المختلف المنافس، يتفنن في تصوير «هذا الدعيّ البغيض» على حد وصفهم له، الذي انحرف بالمسيحية- في نظرهم- عن مسارها الصحيح، وانصرف إلى الدنيا ومتعها ينشر دعوته بالسيف حيناً، وبالتحالفات المريبة حيناً آخر، وبالمال والسلطان حيناً ثالثاً، يوظفهما على نحو يجافي الحساسية الغربية المسيحية التي ألفت صورة المسيح المسالم المتسامي عن كل ما يتصل بهذا العالم، و«ابن الإله» الذي أنقذ الإنسانية من خطيئتها وتحمل وزرها بصلبه.

لقد شهد القرنان الأخيران جملة من التطورات، كان يفترض بها أن تصحح صورة النبي محمد ﷺ في الكتابات الغربية، ولاسيما الأنكلو-أمريكية، وتجعلها أكثر موضوعية ونزاهة وقرباً من واقع الحال، ولكن كتابات الغربيين بوجه عام ظلت - إلا في القليل منها - استمراراً للنزعة الوسيطة الساعية باستمرار إلى احتوائه وتدجينه وتسهيل انضوائه وتبعيته وانقياده للأنا الغربية المسكونة بعقدة التفوق على سائر العالم . بل إن بعض الغربيين مضوا أشواطاً بعيدة في إساءة تمثيل هذا الآخر، والعبث بمقدساته، والاستهزاء بها، والسخرية مما تنطوي عليها من مثل وقيم ومبادئ-مما تبدّى مؤخراً في الرسوم الكاريكاتورية للنبي محمدﷺ، وفي إنتاج أفلام مغرضة تستفز مشاعر المسلمين عامة والجاليات الإسلامية في الغرب خاصة. ولكن «رب ضارة نافعة»، ذلك أن هذا الإسراف في سوء تمثيل النبي محمدﷺ دفع العديد من أبناء هذه الجاليات إلى أخذ زمام المبادرة وتقديم سيرة للنبي ﷺ تليق بمكانته في نفوسهم ومركزيته في حياة المسلمين مما أسهم على نحو ما في تعديل صورته.

* * *

في السادس والعشرين من شهر أيلول عام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف صدرت رواية سلمان رشدي، سيئة الفعل والسمعة، الموسومة بـ الآيات الشيطانية[1] The Satanic Verses عن دار النشر فايكنغ/ بنغوين في لندن، وسرعان ما أطلقت القطة بين الحمائم بما

(١) انظر:

Salman Rushdie,
The Satanic Verses
(The Consortium, Inc., Dover, Delaware, 1992)

أثارت من ردود فعل فاقت جميع التوقعات في مناطق مختلفة من العالمين الغربي والإسلامي، تميزت بالاتساع والشمول والتباين الشديد .

ففي حين ظفرت الرواية في العالم الغربي باهتمام ملحوظ ومغرض في آن معاً تمثل بترشيحها لجائزة البوكر البريطانية المشهورة، ومن ثم إدراجها في قائمة التصفيات الأخيرة لها، وبفوزها بـ جائزة وايت بريد للرواية لذاك العام، وبإصرار ناشرها على عدم سحبها من الأسواق تحت أي حال من الأحوال، وبرفض وزير الداخلية البريطاني التوسع في تطبيق قانون التجريح ليشمل الإسلام في بريطانية وبالتالي حرمان مسلميها من مقاضاة رشدي على أساس منه، وتنادي المثقفين والكتاب في بريطانية والغرب للدفاع عن رشدي وحريته في كتابة ما يريد، بوصف هذه الحرية حقاً من حقوقه الإنسانية الأساسية، خاصة أنها تأتي على حساب «الآخر البغيض»، المسلم المهاجر الذي بات يعيش في قلب العالم الغربي مواطناً يُفترض أن يتمتع بجميع حقوق المواطنة الغربية، شهد العالم الشرقي والمنتمون إليه من المسلمين في الغرب مظاهر نقيضة في شكلها ومحتواها شملت منع الكتاب في الهند وجنوبي إفريقية وعدد كبير من الدول الإسلامية والعربية، وحرق نسخ منه في مدينة برادفورد البريطانية، وتنظيم المظاهرات في لندن وسواها من مدن الغرب، وفي باكستان وغيرها من دول الشرق التي بلغت حداً من العنف أودى بحياة عدد من المتظاهرين غير قليل، وانتهى بعدد أكبر من الجرحى، ومنع جميع منشورات فايكنغ وبنغوين من دخول إيران، والتظاهر خارج السفارة البريطانية في طهران، وإعلان يوم حداد وطني في إيران كلها، وإصدار فتوى بهدر دم رشدي، ثُمَّ قطع علاقات إيران ببريطانية في مطلع شهر آذار من عام ١٩٨٩[١] .

وربما كان من أبرز ما يلفت انتباه الملاحظ المتتبع لردود الأفعال هذه هو استغراب كل فريق لردود أفعال الفريق الآخر. فبينما حار الغرب في تفسير اتساع نطاق ردود أفعال المسلمين ومظاهر الغضب والعنف التي رافقتها احتجاجاً على أمر لم ير فيه مسوغاً كافياً لها، فما جاء به رشدي لا يتجاوز في قبحه وبذاءته ما هو سائد في كتابات الغربيين عن النبي محمد ﷺ، ورشدي، وعلى الرغم مما يشي به اسمه من صلة بالإسلام، مواطن غربي يحمل الجنسية البريطانية، وينتمي قلباً وقالباً إلى الغرب، وما ينتجه جزء لا يتجزأ مما بات يعرف بـ الأدب المكتوب بالإنكليزية Literature in English أو الأدب الإنكليزي الجديد New English Literature ؛ انتابت المسلمين في مختلف بقاع العالم موجة من خيبة الأمل،

---

(١) انظر:

The Rushdie File,
Edited by Lisa Appignanesi and Sara Maitland
(Fourth Estate, London, 1989)

والإحباط، والعنف، والشعور بالإهانة ، إزاء سماح الغرب بنشر رواية كهذه تسيء أيّما إساءة إلى النبي محمد ﷺ وإلى الدين الحنيف، الذي يجلّ أتباعه أيّما إجلال رسول المسيحية السائدة في الغرب، ويجعلون الإيمان به وبأمّه السيدة مريم العذراء مقوماً أساسياً من مقومات عقيدتهم[١] في الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته وبالقدر خيره وشره فضلاً عن الإيمان بيوم الحساب .

ولكن ما فات الغرب معرفته هو ما يكنّه المسلمون من حب وإجلال وتقدير لخاتم الأنبياء وما يمثله بالنسبة إليهم من أسوة حسنة يستلهمونها في جميع مظاهر حياتهم ووجودهم على نحو يجعله في نقطة المركز تماماً في هذا الوجود؛ وما فات الشرق معرفته هو أن الصورة التي يقدمها سلمان رشدي للنبي محمد ﷺ في رواية الآيات الشيطانية، ليست بعيدة عن الصورة الغالبة على أذهان الغربيين والتي رسختها قرون طويلة من المواجهة المتعددة الوجوه والمستويات بين الشرق والغرب، ومعنى هذا أن التدهور الذي سببته هذه الرواية في علاقات الشرق بالغرب كان مردّه إذا ما تجاوز المرء ما يمكن أن ينطوي عليه من نوايا خبيثة تتصل بمواقف المجتمعات الغربية من الجاليات العربية والمسلمة التي تقيم بينها، إلى جهل كل فريق بالآخر وما يحمله من تصورات وآراء وأفكار وأهواء ومشاعر تجاهه

وهكذا جاء كتاب كارين آرمسترونغ: محمد سيرة للنبي[٢] الذي ظهر عام ١٩٩١م استجابة غير مباشرة لنشر كتاب سلمان رشدي: آيات شيطانية (١٩٨٨)، وما استتبع ذلك من غضب الجاليات الإسلامية في الغرب ولاسيما في المملكة المتحدة، وسخطها وردود فعلها التي فاجأت الغربيين، وما تلا ذلك كله من فتوى للإمام الخميني وردود فعل عنيفة في مختلف أنحاء العالم، تمثلت بالمظاهرات الغاضبة وحرق الكتاب وتهديد مؤلفه وناشره بالويل والثبور وعظائم والأمور.

---

(١) انظر إشارة آن ماري شيمل لهذه المفارقة في:

Annemarie Schimmel,
And Muhammad is His Messenger :
The Veneration of the Prophet in Islamic Piety
(The University of North Carolina Press, Chapel Hill and London, **1985**),
pp. 5 and **2634-**

(٢) انظر:

Armstrong, Karen,
Muhammad : A Biography of the Prophet
(Harper San Francisco, New York, **1992**).

وعلى خلاف ما سبق ظهوره من سِيَرٍ للنبي محمد ﷺ حمل كل منها وجهة نظر خاصة به تجاه الإسلام وأتباعه ونبيه، فإن ما يميز كتاب محمد: سيرة للنبي لكارين آرمسترونغ طبيعة التكوين الثقافي لمؤلفته التي أمضت بداية سبعاً من سنين عمرها في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية راهبة، ثم تخلت بعدها عن حياة الأديرة عندما وجدتها لا تجسد رؤيتها الدينية الخاصة بها، ومضت بعدها إلى دراسة الأدب في جامعة أكسفورد، ثم إلى تدريسه في عدد من المؤسسات التربوية والجامعية، وإلى التعليق على الشؤون الدينية الراهنة لتغدو واحدة من أبرز المعلقين على هذه الشؤون في العالم الأنكلو-أمريكي، وتدرّس فيما بعد في كلية ليو بايك Leo Baeck لدراسة اليهودية وتدريب الحاخامات والمدرسين، وتؤلف الكتب المعنية بالتجربة الدينية وعلاقات الأديان السماوية فيما بينها بشكل خاص، محفوزة بما يجري في العالم المعاصر[1].

وفضلاً عن هذا التكوين الثقافي والمعرفي المتميز للمؤلفة، والذي يجمع بين مختلف الديانات الإبراهيمية فإن مساءلتها للتقاليد الدينية والثقافية ولا سيما ما اتصل منها بالعلاقات بـ«الآخر» أمر لافت للنظر في تدبرها لسيرة النبي محمد ﷺ، حيث نراها تعمد إلى بيان «أسباب عداوة الغرب للإسلام ممثلاً في شخص محمد»[2]ﷺ، و«لتجليات تلك العداوة وأصولها، والتهم التي كيلت لمحمد ﷺ وللإسلام، ثم تحولت إلى أساطير أصبحت لها مصداقية الحقائق التاريخية»[3]وتردها إلى أسبابها الحقيقية المتمثلة بـ «الجهل والخوف»، مبيّنة تناقضاتها واعتباطيتها.

---

(١) من كتب كارين آرمسترونغ العديدة يمكن للمرء أن يشير إلى:

- المسيحي الأول: تأثير القديس بول في المسيحية ؛
- ألسنة النار: مختارات من التجربة الدينية والشعرية
- الإنجيل تبعاً للمرأة: خلق المسيحية لحرب الجنس في الغرب ؛
- الحرب المقدسة: الحروب الصليبية وتأثيرها في عالم اليوم ؛
- التصوف الإنكليزي في القرن الرابع عشر ؛
- تاريخ للإله: ٤٠٠٠ سنة من مسعى اليهودية، المسيحية والإسلام ؛
- تاريخ للقدس: مدينة واحدة وثلاثة أديان. (وقد ترجم إلى العربية في كتاب سطور)

(٢) انظر:

د. فاطمة نصر ود. محمد عناني،

«محمد هذا الإنسان»، في كارين آرمسترونغ ، المرجع السابق ، ص(٧)

(٣) انظر: المرجع السابق ، ص(٥).

ولما كانت كارين آرمسترونغ تنظر «إلى النبي من وجهة نظر شخص ذي تصورات مسبقة محددة عن الإسلام» فإنها تقدم سيرة النبي ﷺ من خلال حوار مستمر وهادئ ومثير مع هذه التصورات، تسائلها وتناقشها وتختبر مقدار اتساقها وانسجامها الداخلي لتبين، في معظم الأحيان، مقدار ما تنطوي عليه من التناقض والأهواء والانقياد لنوازع الكراهية التي حكمت نظرة الغرب عامة إلى النبي محمد ﷺ.

وتحاول آرمسترونغ في تقديمها لسيرة النبي محمد ﷺ تقديماً تاريخياً عقد مقارنة بين صورتين للنبي محمدﷺ :

الصورة التي تحكمها المخيلة الغربية والتي تفصح عن صانعها أكثر مما تفصح عن موضوعها.

والصورة التي تكشف عنها المصادر والروايات التاريخية الموثوقة، وذلك بغرض الوصول إلى ما تراه من حقيقة عن هذه الشخصية العظيمة. وبمقدار محاولة آرمسترونغ مساءلة الصورة الغربية والكشف عما تنطوي عليه من تناقض وأهواء ونزعات وكراهية ومواقف متكافئة الضدين في أكثر الأحيان فإنها تلجأ، وربما إرضاءً لأصحاب هذه الصورة، إلى تقديم رواية أكثر قبولاً لديهم على الرغم من بعدها عن حقيقة التصور الإسلامي. ويبدو أن انشغالها بالتجربة الدينية للنبي محمد ﷺ قد طغى على كل شيء في تفكيرها فغدت تحاول تفسير هذه التجربة وشرحها لنفسها أولاً قبل أن تشرحها للآخرين. وبسبب تكوينها الثقافي تعمد باستمرار إلى المقارنة بين الموقف الغربي من اليهود والموقف الغربي من المسلمين والإسلام، وفي ذلك ما فيه من فقدان لحس النسبة في النظر إلى الأمور. فليس ثمة مجال للمقارنة بين المسلمين واليهود في علاقاتهم بالغرب، أو في إسهامهم الحضاري، أو في مجرد حجم مجتمعاتهم، وطبيعة ما سادها من قيم اجتماعية وروحية ولاسيما ما اتصل بعلاقاتهم بـ«الآخر»، حيث اتسم الإسلام عامة بروح التسامح واللين والرفق بأهل الكتاب بشكل خاص، وهو أمر تؤكده المؤلفة في مختلف فصول الكتاب.

ولعل أفضل ما يبين عن موقف المؤلفة بصدق ما تختم به كتابها من رأي في العلاقة بين الإسلام والغرب. تكتب كارين آرمسترونغ:

«والواقع أن الإسلام والغرب يشتركان في تراث عام. وقد تبين المسلمون ذلك منذ زمن النبي محمد ﷺ. ولكن الغرب لا يستطيع قبول ذلك. وقد بدأ بعض المسلمين اليوم بالتحول ضد ثقافات أهل الكتاب التي أذلتهم واحتقرتهم حتى إنهم بدؤوا بأسلمة كراهيتهم الجديدة. وغدت شخصية النبي ﷺ المحبوب مركزية في واحد من آخر الصدامات بين الإسلام والغرب في أثناء مسألة سلمان رشدي. وإذا كان على المسلمين أن يفهموا تقاليدنا ومؤسساتنا

الغربية على نحو أكثر دقة، فإن علينا في الغرب أن نخلِّص أنفسنا من بعض تحاملنا القديم. وربما كانت شخصية النبي ﷺ أحد المواضع التي يمكن البدء بها. وهو الرجل المركّب والمتوقد العاطفة الذي قام أحياناً بأشياء يصعب علينا قبولها[1]، والذي كان ذا عبقرية تنتمي إلى نظام بعيد الأغوار، وأسس ديانة وتقليداً ثقافياً لم يقوما على السيف، على الرغم من الأسطورة الغربية ، والتي يدل اسمها «الإسلام» على السلام والتصالح» (ص ٢٦٦).

وبعد مضي عقد ونصف على ظهور كتابها الأول جاء كتابها الثاني «محمد نبي لأزمنتنا»[2] Muhammad: A Prophet for Our Times الذي ظهر عام ٢٠٠٦م استجابة لأحداث الحادي عشر من أيلول ليتحدث عن النبي محمد ﷺ بطريقة مختلفة تماماً، تحاول الكشف عما يمكن أن تقدمه سيرته من دروس وعبر في مواجهة نكبة العالم المعاصر في جورج بوش الابن وأمثاله من المحافظين المحدثين Neo- Conservatives. وهكذا نراها تكتب عن النبي محمد ﷺ:

«لم يكن محمد رجل عنف. وعلينا أن نقارب حياته بطريقة متوازنة حتى نقدِّر إنجازاته المعتبرة» (ص ١٨).

وتضيف:

«لدى محمد، وبوصفه شخصية أنموذجية، دروسٌ مهمة، ليس للمسلمين فقط، بل للشعوب الغربية أيضاً. كانت حياته جهاداً: وهذه الكلمة، كما سنرى، لا تعني الحرب المقدسة، إنها تعني «الكفاح». لقد تصبب محمد عرقاً – بالمعنى الحرفي للكلمة– بمجهود جلب السلام إلى شبه الجزيرة العربية التي مزقتها الحرب، ونحن بحاجة إلى أناس مستعدين للقيام بهذا اليوم. وكانت حياته حملة لا تعرف التعب ضدّ الطمع، والظلم، والغطرسة».

وتمضي في الدفاع عن واقعيته وأهمية إنجازه فتقول:

«لم يكن محمد يحاول فرض أرثوذكسية، لم يكن معنياً كثيراً بالماورائيات– وإنما بتغيير قلوب الناس وعقولهم. لقد دعا الروح السائدة في عصره بالجاهلية. والمسلمون يفهمون عادة هذه الجاهلية على أنها تعني «الجهل»، أي فترة ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية. وتظهر البحوث الحديثة العهد، أن محمداً قد استعمل مصطلح الجاهلية ليس للإشارة إلى عصر تاريخي، وإنما إلى حالة ذهنية سببت العنف والإرهاب في شبه الجزيرة العربية في

---

(١) التشديد من جانب الباحث.

(٢) انظر:-

Karen Armstrong,
Muhammad: A Prophet for Our Times
(Atlas Books and HarperCollins, New York, 2006)

القرن السابع. إنني سأحاجّ أن الجاهلية حاضرة أيضاً في الغرب اليوم حضورها في العالم الإسلامي» (ص ١٩-٢٠).

والسؤال الذي يراود قارئ هذه المقبوسات التي تتصدر كتاب آرمسترونغ هو ما الذي حدث حتى تتغير لهجة الكاتبة في حديثها عن النبي محمد ﷺ؟ خاصة وأن هذا التغير يتزامن مع موجة جديدة من مظاهر الإساءة إلى النبيﷺ في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة ولاسيما في البلدان الاسكندنافية ثم في غيرها من الدول الأوربية (من مثل الرسوم الكاريكاتورية التي نشرت بداية في صحف الدانمارك وما لبثت الصحف الأوربية المختلفة أن تناقلتها لغايات دنيوية في نفوس أصحابها، وإرضاءً لنزعة عنصرية غربية لم تستطع مختلف وجوه التقدم والتطور في وسائل الاتصال بالعالم أن تغيرها، والأفلام التي تمسخ شخصية النبي ﷺ والمقالات التي تشوّه صورته) التي تتذرع بحرية الفنان في التعبير ولو جاء على حساب مقدسات الآخر.

والواقع أن التغير في نظرة كارين آرمسترونغ وغيرها إنما يعود، فيما يبدو لصاحب هذه السطور، لما بذلته، وتبذله الجالية الإسلامية في الغرب من جهد معرفي متواصل غايته التعريف بالإسلام ونبيه. والكتب الأربعة التي أنتجها مؤخراً كُتّاب من هذه الجالية وتشمل فيما تشمل:

ـ كتاب ضَياء الدين سردار، محمد: وجوه من سيرته[١]، الذي أصدرته المؤسسة الإسلامية في ليستر عام ٢٠٠٥ للأطفال.

ـ وكتاب ضَياء الدين سردار وظفر عباس مالك، محمد للمبتدئين[٢]، الذي أصدرته دار آيكون بوكس في كامبريدج عام ١٩٩٤م للقارئ البسيط.

ـ وكتاب عادل صلاحي، محمد إنساناً ونبياً: دراسة كاملة لحياة نبي الإسلام[٣]، الذي أصدرته المؤسسة الإسلامية في ليستر عام ٢٠٠٢م للقارئ العام.

---

(١) انظر:

Ziauddin Sardar,
Muhammad: Aspects of His Biography
(The Islamic Foundation, Leicester, 2005).

(٢) انظر:

Ziauddin Sardar and Zafar Abbas Malik,
Muhammad For Beginners
(Icon Books, Cambridge, 1994).

(٣) انظر:

Adil Salahi,
Muhammad: Man and Prophet
(The Islamic Foundation, Leicester, 2002).

ـ وكتاب يحيى إيميريك، حياة محمد وعمله[1]، الذي أصدرته دار النشر ألفا- بنغوين في إنديانا بوليس في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٢م للقارئ المعني بالشؤون الراهنة، أمثلة واضحة على هذا العمل الإيجابي الذي ينبغي أن يُعزَّز ويُشجَّع ويتنامى. ولعل إشارة برقية إلى مزايا كل منها كفيلة ببيان ما يمكن أن تسهم به المعرفة في الارتقاء بوعي الغربيين بقيمة النبي محمد ﷺ، وأهميته عبر العصور.

أما كتاب ضيَاء الدين سردار، محمد: وجوه من سيرته، فيتميّز بأنه موجه للقراء الصغار، وهم يشكلون شريحة واسعة من القراء لا تشمل أطفال المسلمين فقط بل تتعدى ذلك إلى أترابهم من الديانات الأخرى ممن يسهل عليهم قراءته بالإنكليزية. ولما كان مؤلفه وناشره مسلِمَيْن فقد كان من الطبيعي أن يوردا عبارة «ﷺ» بالعربية في عنوانه، مما يُشعِر القارئ باحترام كل منهما لموضوع الكتاب، ويدعوه، في الوقت نفسه، للالتزام بهذا الاحترام بدءاً من قراءته للعنوان – أو العتبة التي يمر بها قبل الدخول إلى رحابه.

ومما يميزه أيضاً أنه يتضمن ٣٢ صورة ورسماً توضيحياً موزعة بين الصور الملتقطة لأماكن مختلفة من بيئة النبي ﷺ في نشأته ونموّه وبعثته، وبين الرسوم التوضيحية، وبين الخرائط، وبين صور طبق الأصل لبعض الآيات القرآنية المساعدة في فهم بعض وقائع السيرة النبوية من مثل:

* آيات من سورة «المزمل» ص ١٤ وترجمتها ص ١٥
* آيات من سورة «الإسراء» ص ٢٠ وترجمتها ص ٢١
* آيات من سورة «الفتح» ترد في متن النص وترد ترجمة بعض آياتها في ص ٤٤
* وصورة لكتاب النبي ﷺ إلى منذر بن سوا

ولما كان الكتاب موجهاً للقراء الصغار فقد جاءت فصوله قصيرة (كل منها صفحتان لا أكثر)، تبدأ بنزول الوحي (ليلة القدر) عام ٦١١م، وتنتهي بإنجاز المهمة عام ٦٣٢م، ولذا فإن عدد صفحاته لا يتعدى ٦٤ من القطع الكبير، موزعة على ١٦ فصلاً، ومطبوعة على ورق مصقول، ولغته جميلة وواضحة وسلسة. والحقيقة التي لا تفوت دارس الكتاب ولاسيما مضمونه أن ما يقرؤه الطفل المسلم فيه يبعثه على الاعتزاز والفخر بدينه وبنبيه وبتاريخه المجيد، أما ما يقرؤه الطفل غير المسلم فيه فإنه يبعثه كذلك على الإعجاب بإنجازات النبي

---

(١) انظر:

Yahiya Emrerick,
The Life and Work of Muhammad
(Alpha-Penguin Group, Indianapolis, **2002**).

ﷺ التي امتدت حتى بلغت العالم المعاصر الذي يضم أتباعاً له نشيطين ومسهمين فعّالين في المجتمعات الغربية.

وأما كتاب ضَياء الدين سردار وظفر عباس مالك، محمد للمبتدئين، فإنه يتميّز بداية بالإشارات المباشرة إلى حساسيات إسلامية من مثل: الصلاة على النبي ﷺ كلما ذُكِر؛ وعدم تصويره ﷺ أو أي من صحابته؛ والإعلان صراحة عن قبول ذلك والانصياع له، فضلاً عن تعليقات من جانب معلّق اسمه فاس Fez يقرئ القارئَ السلامَ ويعلن أنه سيتأكد، إن شاء الله، من أن المؤلفين سيلتزمان بالصراط المستقيم في تقديمهما لمادة الكتاب.

ومما يميزه أيضاً إيراده أحاديث للنبي محمد ﷺ مترجمة إلى الإنكليزية تتناول مختلف وجوه حياة المسلمين وتعكس وجوهاً إيجابيةً للإسلام. والحقيقة أن مؤلفي الكتاب قد اتخذا الحديث عن سيرة النبي ﷺ مدخلاً للحديث عن الإسلام بمختلف جوانبه: عقيدة وتاريخاً وحضارة ومنجزات وغير ذلك مما يحقق الغاية من تأليف الكتاب كما يشير إلى ذلك غلافه الخارجي الذي نقرأ فيه:

«محمد للمبتدئين» دليل عارف إلى عالم الإسلام المركّب والمحيِّر. إنه يسرد تاريخ الإسلام منذ ولادة محمد ﷺ في أواخر القرن السادس في الصحراء العربية إلى قوته الثقافية والسياسية في عصرنا.

ونقرأ كذلك:

«يعرض رؤية في المعتقدات والتقاليد الإسلامية وتفحصاً للأفكار الجديدة التي تعيد صياغة أو تشكيله العالم الإسلامي»

ومعنى هذا أن الكتاب يقدم حياة النبي ﷺ في إطار أوسع هو الدين الإسلامي: عقيدةً وثقافةً وتاريخاً ومجتمعات، وهو صنيع حسن لأنه يضع الأمور في سياقها الدال الذي يكشف عن أهميتها وموقعها في التاريخ الإنساني، كما أنه يعمد إلى تقديم الكثير من المعلومات في إطار مربعات أو مستطيلات مرفقة بصور توضيحية ووثائق وصور فوتوغرافية وإشارات موحية.

وأما كتاب عادل صلاحي، محمد: الإنسان والنبي: دراسة كاملة لحياة نبي الإسلام، فهو مرجع ضخم يمكن أن يشفي غليل القارئ المتعطش لمعرفة المزيد عن سيرة النبي محمد ﷺ، إذ يستند مؤلفه (الذي يعمل مديراً لمؤسسة الفرقان التي تعنى بالمخطوطات العربية والإسلامية وجمعها وتوثيقها وتحقيقها ونشرها) إلى مكتبة ضخمة من المراجع العربية والإنكليزية.

ويقع الكتاب فيما يتجاوز الـ ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير، يتتبع فيها المؤلف في ستة وعشرين فصلاً موسعاً السيرة النبوية من ولادة النبي محمد ﷺ وطفولته حتى انتصار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، على خلفية الأحداث التاريخية التي مرت بها المنطقة، مع سعي مستمر لربطها بحياة صاحب السيرة. إذ كان الكتاب موجهاً إلى قرّاء اللغة الإنكليزية من غير المسلمين ويهدف إلى سرد حياة النبي محمد ﷺ في إطار من بدايات التاريخ الإسلامي في الجزيرة العربية، فإنه كذلك موجه إلى القراء المسلمين ليفهموا دينهم على نحو أفضل ويزدادوا معرفة به وبنبيهم. والحقيقة أن الكتاب إسهام مهم جداً في موضوع خطير من موضوعات الساعة ولا يمكن أن يوفى حقه في هذه الإشارة البرقية[1].

وأما الكتاب الرابع وهو كتاب يحيى إيميريك، حياة محمد وعمله، فإنه يتميز بكون مؤلفه مسلماً أمريكياً تحول عن المسيحية البروتستانتية عام ١٩٨٩م إلى الدين الإسلامي، وغدا ناشطاً فعالاً وداعية محترماً للدين الحنيف في الولايات المتحدة الأمريكية، فهو رئيس المؤسسة الإسلامية في أمريكا الشمالية، ونائب رئيس المدرسة الإسلامية في ويستبري، نيويورك. فضلاً عن كونه إماماً وأستاذاً، ومحاضراً، ومؤلفاً، وقد اختير أحد كتبه مؤخراً ليكون كتاباً مقرراً يُدرّس في جامعة الأزهر. ومعنى هذا أن أنه ربما كان على وعي أعمق بخلفية قرائه الدينية والثقافية في العالم النطق بالإنكليزية.

وقد حاول جهده أن يستكشف من خلال هذه السيرة المكثفة العارفة أرضية محمد ﷺ وصباه، والثقافة والمجتمع اللذين عاش فيهما، مثلما حاول أن يبين موقع النبي ﷺ بوصفه رجل أسرة، ويوضح كيف أن حياته الشخصية تشهد على عظيم تقديره للمرأة. فضلاً عن سعيه إلى إبراز عنايته بأداء رسالته بوصفه نبياً، واجتهاده الواضح في شرح فلسفة الإسلام المتصلة بالتوحيد والعلاقة مع الأديان السماوية الأخرى. وهو لا يكتفي بذلك لأنه يعنى أيضاً بالقرآن ونزوله ونظرة المسلمين إليه في حياتهم الدينية، كما يعنى بتوضيح منظور النبي ﷺ إلى مفهوم الجهاد. ومما يبشر قارئه المسلم، بأنه مُقدِم على قراءة كتاب سينصف نبيّه لا

---

(١) ربما كان من باب الإنصاف لعمل الأستاذ عادل صلاحي الإشارة إلى نزعته النقدية في تناوله لمسائل السيرة النبوية، وإلى إصراره على مراجعة عمله باستمرار. ويتضح هذا أكثر ما يتضح في الطبعة الجديدة للكتاب التي ظهرت عام ٢٠٠٨م عن دار النشر ذاتها، والتي أعاد فيها على نحو جذري كتابة الفصل السادس والعشرين المتصل بخيانة بني قريظة للنبي في غزوة الخندق، مبيناً أن عقاب النبي ليهود بني قريظة على خيانتهم نال عدداً محدوداً منهم لم يتجاوز الـ ٢٥ مقاتلاً، على خلاف ما هو شائع في النصوص العربية والأجنبية ذات الصلة، ومدللاً على ذلك بمختلف أنواع الأدلة النصية والعقلية. كما أنه أضاف إلى الطبعة الجديدة ملحقاً يقع في إحدى عشرة صفحة (ص ص ٨٠٨-٨١٩) بيّن فيه أن عُمَر أم المؤمنين السيدة عائشة عند زواجها من رسول الله ﷺ كان نحو العشرين عاماً وليس تسعة أعوام كما هو شائع في النصوص العربية التي تناولت زواج النبي محمد ﷺ.

محالة، إن المؤلف يبدؤه بإشارة إلى كتاب مايكل هارت مائة الناس الأكثر تأثيراً The One Hundred Most Influential People والذي يضع محمداً ﷺ في رأس هذه القائمة، ويختمه بتأكيده دَيْن الغرب للثقافة الإسلامية – هذا الدَيْن الذي غُيِّب طويلاً، مع أنه كان وراء نهضة أوربة وعصر التنوير فيها.

والدرس المستقى من هذه الأمثلة هو أن مقاطعة المنتجات وقطع العلاقات الدبلوماسية أو استدعاء السفراء للتشاور ومظاهر الاحتجاج المختلفة من مظاهرات واعتصامات ومهاجمة لسفارات الدول الغربية التي ارتكب مواطنوها السوءات المختلفة تجاه الإسلام ونبيه الكريم وتهديد مسؤولي بعض البلدان وغيرها لا يمكن أن تحلّ مشكلة تسفيه مقدسات المسلمين. وحتى تدخل الأمم لا يمكن أن يوقف هذا المدّ من مظاهر الكراهية التي يكنها المتعصبون والعنصريون من اليمين الغربي . إن حلها في رأي صاحب هذه السطور لا يكون إلا بشفع هذه الردود التي ينبغي أن تجانب العنف بمختلف صوره بنشر المعرفة الصحيحة عن النبي ﷺ والإسلام. وذلك من خلال القيام بمبادرات تجاه مختلف شرائح المجتمع المدني الغربي ومكوّناته تصحح صورة الإسلام والمسلمين والنبي محمد ﷺ، وإفساح المجال أمام متنوري هذه الشرائح ليؤدوا دورهم في المجتمع الغربي كما هو شأن كارين آرمسترونغ. ولابد من إقامة شراكة مع متنوّري الغرب ممن يؤمنون بالتعاون العلمي والمعرفي مع العرب والمسلمين، ولاسيما أولئك الذين يؤمنون بأن لدى العرب والمسلمين ما يسهمون به في الحضارة الإنسانية المعاصرة.

التراث العربي

العدد المزدوج «١٢٠-١٢١» كانون الثاني - نيسان ٢٠١١م / رمضان - ذي الحجة ١٤٢١ هـ السنة الثلاثون
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب

مجلة
فصلية
محكمة

قراءة

- ملف العدد يتضمن
- أ.د. حسين جمعة — الأدب الجاهلي والمكاشفة الذاتية
- أ.د. فاروق اسليم — الشعر والمطر عند امرئ القيس
- د. أحمد حالو — صورة الأدب الجاهلي في المؤلفات التاريخية
- د. حسين الزعبي — عنترة بن شداد في كتب التراث
- د. عادل الفريجات — صورتان للحياة في مرآة الشعر الجاهلي
- د. عبد الكريم محمد حسين — قصيدة عمرو بن الأهتم التميمي القافية